

## ٢ - مدينة الزهراء

ومياتها الملوكية الفصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تمتمة البحث

- ٢ -

القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير بروم ومانتعى اليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والنفخامة والجلال ، فان هذا المقام الكنسى الملوكي الفخم يحتوى على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويقسم عدة أجنحة ومجالس رائعة أسبغ عليها أبداع ماعرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير

وقد انتهت البنا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مذهشة تبيء عما كانت عليه من الضخامة والنفخامة ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه قيصر تمطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس الموه ؛ وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقرض ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألفاً وطل من اللحم سوى السجج والحجل وغيرها (١) . وقد لا نجد في المنشآت للوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى

(١) فتح الطيب ص ٢٦٥

الذئبة الصريحة ذئبة واحدة ، ولكن الفضيلة الكاذبة ذئبتان

\*\*\*

يرى للحدود أن من حقهم أن يصلوا في النفس الانسانية كما يعمل أهل الدين ؛ فهل من حق أصابع الرجلين أن تمشى على السبابة (١) كأصابع اليدين ؟

\*\*\*

لكل إنسان عقل يحكمه الفريضة ، وحقبة الدين أن يكون للفريضة عقل يحكمها

\*\*\*

إذا جئت بالكنتة وبالنت فيها ، كنت كمن أضاء المصباح وأطفأ حين أضاء

(طنطا)

الفرقة الأولى

(١) هي تريب (الياتو) وجمعها يانات بكسر الباء

ولم تعمم الزهراء طويلاً كقاعدة ملوكية ؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية ؛ فقد ترك الحكم الملك لابنه الوحيد - هشام المؤيد - وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة ؛ وسرطان ما استولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبي طاهر على مقاليد الحكم بموازرة صبيح أم المؤيد ووصية العرش ، ولم يمض قليل حتى استأثر ابن أبي طاهر بكل سلطة ورياسة في الدولة ؛ وفي سنة ٣٦٨ هـ أنشأ له ضاحية ملوكية جديدة بجوار قرطبة على نهر الوادي الكبير وأسماها الزاهرة ، وجعلها قاعدة الحكم ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودوائر الحكومة ، واتخذ سمه الملك وتسمى بالحاجب المنصور

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشادت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها وخلفه الذي اكمل بناءها . وكان قيام الحاجب المنصور في الواقع خاتمة لسلطان بني أمية ، ولم يبق لهم بعد ذلك من الملك سوى الاسم ؛ وقد بقيت الزهراء حيناً آخر مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه ، ولكنها فقدت إلى الأبد أهميتها السياسية ، وروعيتها الملوكية

ثم كانت الحنة الكبرى بانهباء هذا الصرح البديع القوي شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهباء الخلافة الأموية والدولة الطلمرية معاً ، وسقوط الأندلس صرحي الحرب الأهلية : ففي سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) زحف سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينزعها من المؤيد وواضع الحاجب التغلب عليه ، ثم هاجم مدينة الزهراء واقتحمها ، وقتك أنصاره البربر بسكانها ، وطأوا في

نقاطبت منها طائراً متفرداً لمشجن في القلب وهو مروع  
 نقلت على ماذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضي ليس يرجع  
 ويرثي القتح معاهد الزهراء خلال زوايا نقلها عن جولة  
 لبعض الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الهيار قد أشرفت  
 عليهم كشكالي ينحن على خرابها ، وانقراض إطرابها ، والوهي  
 بمشيدها لآعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد عمت  
 الحوادث ضيائها ، وقلصت ظللالها وأفياءها ، وطالما اشترت  
 بالخلائف وابتهجت ، وقاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا  
 خلالها وتقبأوا ظللالها ، وعمروا حدائقها وجنتها ، ونموا  
 الآمال من سنتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، واخجلوا الغيوث  
 عند انسجامها ، فأنحمت ولها بالتداعي نفع واعتجار ، ولم يبق من  
 آثارها إلا نوى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهمم شبابها ؛  
 وقد بلى الحديد ، وبلى على طيه الجديد . . . » (١)

ومحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهراء - وقد  
 زارها أيام الحكم - فيصف موقعا ، ويقول إن المهارة اتصلت  
 بينها وبين قرطبة ، وأن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلد (قرطبة)  
 في المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها  
 نظير بالقرب فخامة حال وسعة تلك ، وابتدالا لجيد الثياب  
 والكسي ، وفراة الكراع وكثرة التحلي ، وإن لم يكن لها في  
 عيون كثير من الناس حسن بارع . . . » (٢)

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع ،  
 الهجري ( القرن الثالث عشر ) وقد ذكرها الشريف الإدريسي  
 في معجمه الجغرافي الذي ومنه في منتصف القرن السادس وذكر  
 أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال (٣) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت  
 الحموي في معجمه الجغرافي التي وضعه في أوائل القرن السابع  
 الهجري (٤) . وفي سنة ٦٣٦ هـ ( ١٢٣٦ م ) كانت نكبة  
 الأندلس ، ونكبة الاسلام بمقوط قرطبة في يد النصارى ،  
 فطويت بذلك أسطح صحف الاسلام وحنف الخلافة في الأندلس ؛  
 وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط  
 الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عمراً تحتفظ بهيبتها

(١) راجع قلائد النيران في ترجمة السيد بن عباد ص ١٠

(٢) للسالك وللإمام ص ٢٨

(٣) راجع نزهة اللغات ( المختصر ) طبع رومة - ص ١٩٢

(٤) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء ( مصر ) ج ٤ ص ٤٢١

معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ؛ والظاهر أن  
 الضربة كانت قاضية ، فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة  
 سوى أطلال دارسة ، ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك في  
 التاريخ الأندلسي إلا كأثر عصف به صروف الدهر ؛ وقد كانت  
 الزهراء أيام روعتها وازدهارها وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ،  
 وقد تنزل بجبالها ونخامتها جبهة من أكبر شعراء الأندلس وأمهراء  
 البيان ، ثم رثوها بعد ذلك في مقطوعات مؤثرة ؛ ومما قاله  
 ابن زيدون أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء ورائع ذكرياتها :  
 خليلي لا فطر بسر ولا أخفى

فما حال من أمسى مشوقاً كما أخفى

لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل

أخص بمخصوص الهوى ذلك السفعا

معاهد لذات وأوطان صبوة أجلت الماني في الأمانى بها قدما  
 الأهل إلى الزهراء أوبة فازح تقضت مبانها مدامه سفعا  
 مقاصر ملك أشرفت جنباتها

نقلنا المشاء الجون أثناءها صباحا

يمثل قرطبتها لي الوم جبهة

فقبها فالكوكب الرحب فالسطحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيه

إذا عز أن يصدى الفتى فيه أويضا

هناك الحمام الورق تندى خفافها

ظللال عمت الدهر فيها فتى ممحا

تموضت من شدو القيان خلالها

سدى فلوات قد أطار الكرى صباحا (١)

ونقل الينا الشيخ محي الدين بن العربي (٢) أبيتاً قال إنه

قرأها على بعض جدران الزهراء بمد خرابها ، وقام في المدينة  
 الشهيرة وهي :

ذيارباً كفاف اللامب تلمع وما إن بها من ساكن وهي بلقع  
 ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع

(١) زلج نصيدة ابن زهون برمتها في ترجمته في « ثلاث النيران »

لفتح ص ٧٢

(٢) هو من أكبر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس

وأوائل القرن السابع الهجري ؛ وقد نقل الينا هذه الرواية والآيات في

كتابه البصير معاصرة الأبرار وساصرة الأخبار

## مذاهب الفلسفة

## ٢- المذهب الطبيعي\*

للأستاذ زكي نجيب محمود

- إذن فالجماد والحى شيان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحدة هي الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التي يصادفها المذهب الطبيعي هي هذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعي فننجز به من هذا المأزق السير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل
- أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليماً وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخذ يبحث فيما يطراً على الحياة من تغير وتحول ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الكائن الحى قد تسلسل من كائن حى قبله ، وهذا من كائن حى قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد في بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أى بين الكائنات السقلى والكائنات المليا ، وإذن فدارون لم يقدم في نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعي ، وهي ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

- ثم جاء في أثره هربرت سبنسر وتناول بمقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحججة على أن الحياة إن هي إلا ضرب من ضروب المزيج الكيميائى بين أجزاء المادة ، فإذا كنا نبنى الوصول الى الحلقة التي تصل الحياة بالجماد ، فاعلينا إلا أن نلتصق علماء الكيمياء ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم في عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(\*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن تنبه الى أن هذه الفصول إنما قصدت لدراسة وحدها ، وهدى أنها لا تميز لكتابها عن رأى خاص

الخلافة القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في يد النصارى عصرأ يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الجدد صيتها ومعالها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومآهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجد الباهر الذى حوله الأسبان منذ افتتاحها الى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهدت بذلك معالها ومناظره الأولى ، ولكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقتة وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مراكيتا » Mesquita أى المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من مآهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالها منذ عصر بيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب ، في شمال غربى قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la vieja ؛ ويقوم الى جوار موقعها القديم الى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بنى باتقاض قصر الزهراء (١) وقد عثت الميئات الأثرية الأسبانية في العهد الأخير بإجراء الحفر في تلك النقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالها الحقيقية (٢) وقد كان لهذا المصير المحزن الذى ألمت به مدينة الناصر بسرعة مؤسفة شبيهة بين مصائر القواعد اللوكية الاسلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطنع اللوكية التي أنشأها ابن طولون الى جانب القسطنطينية ، وأسبغ عليها ولده سنارويه آيات رائمة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تحس القطنع بين يوم وليلة ، بمد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق في العظمة والثرة السلطانية ، وفي ظروف العصر ، وصرور الأحداث

محمد عبد الله عثمان

Ency. de l'Islam-Cordone (١)

(٢) راجع في تلريخ الزهراء وأخبارها وأوصالها : فتح الطب ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان القرب ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ وللإسك وللمالك لابن حوقل — ص ٧٨ و ٧٩ ، وأقرب في معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضا Dozy : Ibid, II, P. 174 Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172